إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضى ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا فى مثل قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..** (٨) ﴾ [المجادلة] فأطلعه الله على ما فى نفوس القوم .

وفى غزوة مؤتة ، وهى الغزوة الوحيدة التى لم يحضرها رسول الله ﷺ ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة ـ لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التى حضرها رسول الله ، أما فى مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو فى المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه فى المدينة بما يجرى فى مؤتة وكأنها رَأْىُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان ﷺ يقول : قُتل فلان وسقطت الراية ، فأخذها فلان وقُتل وحملها فلان .. إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله ﷺ[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿ **رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ**

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيدٌ فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشَر الأحكام فى الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.. ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء]

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطرى يهتدى إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر - رضى الله عنه - .

يقولون : تذكرون عمر فى كل شىء : فى العدل تقولون عمر ، وفى القوة تقولون عمر ، وفى وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدى إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿ لَوْلا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص] تأتي بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهي حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد . ومن هذه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية في الآية ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ
مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن
قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ(١) تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [القصص] أي : الرسول الذي طلبوه ﴿ قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [القصص] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٨١) : فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام . وهذا قول مشركي العرب . وبه قال ابن عباس والحسن.
الثاني : موسى وهارون . وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة . وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .
الثالث : عيسى ومحمد ﷺ . وهذا قول اليهود اليوم . وبه قال قتادة . وقيل : أو لم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً .. (٤٧)﴾ [القصص] والآن تطلبون آيات حسِّية كالتى أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد ﷺ كانت آيات حسِّية كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهى بانتهاء وقتها ، فهى مناسبة للرسل المحدودى الزمن ، والمحدودى المكان .

أما الرسول الذى أُرسلَ للناس كافَّة فى الزمان وفى المكان ، فلا تناسبه الآية الحسِّية الوقتية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ؛ لذلك جاء الحق - تبارك وتعالى - على يد محمد ﷺ بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد ﷺ كان الرسول يأتى بمعجزة تثبت صدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد ﷺ فجاءت معجزته هى عَيْن الكتاب والمنهج الذى أُرسل به ليظل الدليل على صدْقه باقياً مع المنهج الذى يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدَّقنا بهذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبرنا بها في القرآن الكريم ، فللقرآن الذي جاء معجزة ومنهجاً الفضل في إبقاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ .. (٤٨)﴾ [القصص] ثم يحكي ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] أي : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد ﴿تَظَاهَرَا .. (٤٨)﴾ [القصص] علينا يعني : تعاونا ، وهي مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطني ظهرك مع ظهري لنحمل الحمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقي السحرة ساجدين ؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)﴾ [القصص]

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩)﴾

معنى ﴿قُلْ .. (٤٩)﴾ [القصص] أي : في الردّ عليهم ﴿فَأْتُوا بِكِتَابٍ

مَنْ عندِ اللَّه هُوَ أَهْدَىٰ منْهُمَا .. (٤٩)﴾ [القصص] أى : أهدى من التوراة التى جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذى جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿أَتَّبِعْهُ إن كُنتُمْ صَادقين (٤٩)﴾ [القصص] يعنى : لو جئتُم به لاتبعته .

وهذا يعنى منهجين : منهج حقٌّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدى من سيدنا رسول الله للكفار يعنى أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتى من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أهْدى من كتابه يطمعهم فى طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التى لم ينطق بها رسول الله . وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟

إذن : يقول لهم : ﴿إن كُنتُمْ صَادقين (٤٩)﴾ [القصص] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً ﷺ خاتَم الرسل ، فلن يأتى رُسُل بعده ، بحيث يأتى الرسول فتستدركوا عليه فيأتى آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنّن سيأتى بالمنهج الذى يخدم مذهبه ، ويُرضى هواه .

لذلك نقول : ينبغى فى المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُسْتدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر فى أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التى وُضعت فى الماضى لم تَعُدْ صالحة الآن ينادى الناس كثيراً بتعديلها ، حيثَ طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فطالبوا بتعديلها .

ثانياً : يشترط فى المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ،

ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته فى الحياة ؛ لذلك يجب ألاَّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشتَرط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشىء مما يشرع .

وإذا اقتضتْ مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنِّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أىّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة فى التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذى قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذى قنَّن لأول مُقنِّن هو الذى خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) ﴾

وهذا يعنى أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يأْتهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق - تبارك وتعالى - على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : الكلام عندهم ليس فى الكتاب ، إنما فيمن أُنزل عليه

الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ .. (٥٠) ﴾ [القصص]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ .. (٥٠) ﴾ [القصص] يعني لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. (٥٠) ﴾ [القصص] أي : اتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله في الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(١) .

فنحن في هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم في الطاعة والعبادة : اللهم إنِّي أخشى ألاَّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنك أمرتنا أنْ نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندي .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة في الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات في الأحداث موجودة في الكون .

وقد عبَّر المتنبي(٢) عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الحياةَ لنفسه ... حَرِيصاً عليها مُسْتهاماً بها صبًّا
فحبُّ الجبانِ النفسَ أوردَهُ التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوردَهُ الحَرْبَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه للحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقي بنفسه في معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هي حياة الشهيد .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » . (ص ٤٦٠) وضعَّفه .

(٢) أبو الطيب المتنبي هو : أحمد بن الحسين الكندي ، الشاعر الحكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربي ، له الأمثال السائرة والحكم البالغة ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ في محلة تسمى « كندة » ونشأ بالشام ، تنبأ في بادية السماوة ، وقُتل عام ٣٥٤ هـ على يد جماعة خرجوا عليه بالطريق . [الأعلام للزركلي ١١٥/١] .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ فى الوُجودِ يطلبُ صَيْداً غَـير أنَّ الشِّـباكَ مُختلفَـات

فالرجل الذى يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفيه قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. ⑨ ﴾ [الحشر]

نقول : هذا آثر الفقير على نفسه ، لكنه من ناحية أخرى يبغى الأجر ويطمع فى عَشْرة أمثال ما أنفق ، بل يطمع فى الجنة ، إذن : المسألة فيها نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنها أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانية حمقاء ، الدين يرتقى بصاحبه ، ويجعله إيجابياً نافعاً للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسرق . وحين يأمرك بغضِّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرتَ إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهى فلا تَنْسَ ما أعطاك .

لذلك حين نتأمل النبى ﷺ وهو يعالج داءات النفوس حينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكى إليه ضَعْفه أمام النساء ، وقلة صبره على هذه الشهوة ، حتى قال له : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، ومع ذلك لم ينهره رسول الله ﷺ ، بل علم أنه أمام مريض يحتاج إلى مَنْ يعالجه ، ويستل من نفسه هذه الثورة الجامحة ، خاصة وقد صارح رسول الله بما يعانى فكان صادقاً مع نفسه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسول الله ، وقال له : يا أخا العرب ، أتحب ذلك

لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب فى كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك .

عندها قال ﷺ : « كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم »[1] .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شيء أبغض إلىَّ من الزنا بعدما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بى شهوة ذكرتُ قول رسول الله فى أمى ، وزوجتى ، وأختى ، وابنتى .

فالذى يُجرِّىء الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر فى العواقب ، وكذلك يزهدون فى الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسى ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضى شهوته فى الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقى بنفسك فى هذا (الفرن) بعد أن تُنهى ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥٠ ﴾ [القصص] وفى مواضع أخرى : ﴿ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝١٠٨ ﴾ [المائدة] ، ﴿ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٤ ﴾ [البقرة] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية لأحد إلا بسبق شيء منه ، والمراد بالهداية هنا ـ أى : هداية الإيمان والتقوى ـ وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

(١) عن أبى أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فهمَّ من كان قرب النبى ﷺ أن يتناولوه فقال النبى ﷺ : دعوه . ثم قال له النبى ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك ؟ قال : لا ، قال : فابنتك ؟ قال : لا . فلم يزل يقول فبكذا فبكذا ، كل ذلك يقول : لا ، فقال النبى ﷺ : فاكره ما كره الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك . أورده المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٢/٢٩٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

كلمة ﴿ وَصَّلْنَا .. ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصِّلها ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [القصص] أى : وصَّلْنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصلين بهدى الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله ﷺ ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلْنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التى أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿ كَذَلِكَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان]

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التى سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذُكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن ليُسلِّيه ، ويُسرِّى عنه ما يلاقى من خصومه .

وحكمة أخرى فى قوله : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] فكلما نزل قسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجدّ عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة ؟

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان]

وقد ورد الفعل يسألونك في القرآن عدة مرات في سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملةً واحدة ، ثم سبحان الله هل أطقتموه مُنجَّماً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)﴾ [القصص] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢)﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه محمد ﷺ : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء في كتابك ذُكر في كتبهم وذكرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب في معرفة الحق الذي جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾ [الرعد]

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾ [الأعلى]

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ .. (١٩٩) ﴾ [آل عمران]

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التى كانت لهم قبل الإسلام ، سيادةً فى العلم ، وفى الحرب ، وفى الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَىٍّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه ملكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعنى أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) ﴾

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته

(١) **سبب نزول الآية** : قال قتادة : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وتميم الدارى والجارود العبدى وسلمان الفارسى ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية . [تفسير القرطبى ٧/٥١٨٣]
وقال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى ، منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى .

إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذى يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتى بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين جاء عيسى بأنه جاء بعد موسى ـ عليه السلام ـ فلا يستبعد عقلاً أنْ يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث فى الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التى لا تتغير موجودة فى كتابه ، وهو أمىٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صدْقه .

فقوله تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] أى : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد ﷺ .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين :

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أمَة - جارية - فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها »[1] .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن فى الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء فى الإيمان الثانى ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هى حيثية ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص]

وكما أن الله تعالى يُؤتى أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتى بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم - كما بيَّن سيدنا رسول الله : « عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أمَةٌ ... » .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذى باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٤) كتاب الإيمان من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه بنحوه .

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أَوْ حَدٌّ مُرْهَف   يُقيم ظباه[1] أَخْدعَى[2] كلِّ مائل
فَهَـذا دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ عَاقل   وذَاك دَوَاءُ الـدَّاء من كُلِّ جاهل

ولى أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿ أُوْلَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا .. (٥٤) ﴾ [القصص] وقد كنا فى بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسى المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءنى مرة يقول : سمعت المقرىء يقرأ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فألسْنا من العالمين ؟ قلت له : نعم أُرسل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ فى القرآن نظرة إمعان وتبصُّر تجد أنه رحم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قولهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥) ﴾ [النساء] ولم يقل بين المؤمنين ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾ [النساء] لأن الله لا يحب الخوَّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية[3] وهى قصة الدرع الذى أودعه اليهودى زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ،

---

(١) الظبة : حدّ السيف والسنان والنصل والخنجر وما إلى ذلك . [لسان العرب ـ مادة : ظبا] .
(٢) الأخدعان : عرقان فى جانبى العنق قد خفيا وبطنا . وقال اللحيانى : هما عرقان فى الرقبة. [لسان العرب ـ مادة : خدع] .
(٣) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٠٣) ـ طبعة المكتبة الثقافية بيروت .

وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه فى كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودى فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودى ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودى ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق[1] .

وجلس رسول الله يفكر فى هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحى ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)** ﴾ [النساء]

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى فى حقِّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أى : كثير الخيانة وبرّأتْ اليهودى ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودى .

(١) قال ابن حجر العسقلانى فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٢٨٥/٣) (ترجمة ٤٢٢٨) : « ذكره أبو إسحق المستلمى فى الصحابة وقال : شهد المشاهد كلها إلا بدراً .. وقد تُكلِّم فى إيمان طعمة » .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام في نظر الجميع : المسلم واليهودي وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام في نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذي يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذي شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٥٤) ﴾ [القصص] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) ﴾ [القصص] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهي الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) ﴾

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ .. (٥٥) ﴾ [القصص] واللغو : هو الكلام الذي لا فائدةَ منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغي على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .